العدّ التنازليّ في إدلب

ولا سيّما أن تلك المناطق قد عرفت مرحلة من «الأمان» في ظل الاحتلال التركي. ويبدو لافتاً أنّ عدداً كبيراً من اللاجئين العائدين من دول الجوار قد عادوا إلى تلك المناطق تحديداً، وفقاً للإحصائيات التي توفرها المنظمات الدولية المعنية باللاجئين. ويبدو هذا السيناريو مرشحاً للتكرار في مستقبل إدلب القريب، وعلى وجه التحديد في القسم الذي ستضطلع أنقرة بمسؤوليته في ظل اتفاق «خفض التصعيد»، وهو الجزء القريب من حدودها بطبيعة الحال. ورغم استيفاء العملية العسكرية التركية المرتقبة عناصرها، ما زالت أنقرة تسعى في ربع الساعة الأخير إلى انتزاع موافقة من «النصرة» على تكريس «حل سلمي» يوفّر على الطرفين أكلاف الحرب. وكانت «الأخبار» قد أشارت قبل ثلاثة أسابيع إلى «عرض تركي» على طاولة الجولاني يمنحه «خروجاً مُشرّفاً» من المشهد السوري. وترافق العرض المذكور مع رسائل تركية «شديدة اللهجة» تحمل في طيّاتها تهديداً مبطّناً بتسهيل استهدافه وتصفيته (راجع «الأخبار»، العدد 3276). غيرَ أن الجولاني اختار «الحل الأصعب» عبر إعلان نفسه «قائداً عاماً لهيئة تحرير الشام». ورغم أنه كان منذ إنشاء «الهيئة» قائداً فعليّاً لها، غير أنّ الخطوة جاءت بمثابة ردّ على تهديدات أنقرة. ويؤكد «مسؤول جهادي» سابق في «النصرة» أنّ «خطوة الجولاني كانت رعناء، وذهبت بعيداً في التحدّي». ويقول المصدر الذي انشقّ قبل عامين لـ«الأخبار» إنّ «جنون العظمة قد تفاقم لدى الجولاني في الشهور الأخيرة، وقد أبلغنا كثير من الإخوة عن وقائع تؤكد أنّه فقد السيطرة على نفسه». ورغم أنّ «هيئة تحرير الشام» قد أصدرت أخيراً تكذيباً لنبأ إصابة الجولاني، غير أنّ التكذيب (في حال صدقه) لا ينفي احتمال ضلوع أنقرة بتسريب معلومات عن مكان وجود الزعيم المتطرف. ويورد مصدر إعلامي مرتبط بـ«الهيئة» رواية مفادها أنّ «الشيخ عدل عن حضور الاجتماع الذي استُهدف قبل ساعتين فحسب». ويؤكد المصدر لـ«الأخبار» أنّ «الشيخ سيخرج قريباً في شريط مصوّر ليفضح كذب الروس». وأصرّت موسكو أمس على رواية إصابة الجولاني ووضعه الحرج. ونقلت وسائل إعلام روسية، عن المتحدث الرسمي باسم وزارة الدفاع، إيغور كوناشينكوف، تأكيده أن «سلاح الجو الروسي نفذ غارة دقيقة، بعد تلقيه معلومات استخبارية، أدت إلى مقتل عدد من قيادات النصرة، وإصابة زعيمها ودخوله في غيبوبة». ويبدو جليّاً أنّ وقوع الغارة في حد ذاته يأتي بمثابة ورقة ضغط قاتلة على «النصرة» وزعيمها، سواء أكانت إصابته حقيقةً أم لا.

«داعش» في كنف «درع الفرات»

حينَ أطلقت أنقرة عمليّة «درع الفرات» قبل عام وشهرين، كان تنظيم «داعش» محافظاً على كونه طرفاً قويّاً في المعادلة السوريّة. الرقّة «عاصمة التنظيم» كانت في قبضته مع «هوامش أمان كبيرة». دير الزور بمعظمها تحت سيطرته، وجزء صغيرٌ منها قابعٌ تحت حصاره بمدنييه ومن فيه من الجيش السوري. حتى في العراق كان التنظيم حاضراً بقوة في ذلك الوقت، ولم تكن معركة تحرير الموصل قد انطلقت بعد. لكنّ قوّة التنظيم لم تُشكّل حاجزاً في وجه الجيش التركي، إذ نجح الأخير من دون عناء كبير في وضع قدمه داخل الجغرافيا السوريّة وأخذ في التقدّم ترافقه مجموعات مسلّحة تركيّة الولاء والهوى (ستتحول هذه المجموعات لاحقاً إلى نواة لـ«جيش وطني مُعارض» وإلى «جهاز شرطة» يتولّيان مسؤولياتهما في مناطق الاحتلال التركي). وباستثناء معركة الباب، لم يخض الأتراك ومجموعاتهم معركةً ضارية بمعنى الكلمة في إطار «درع الفرات». تساقطَت معاقل «داعش» واحدة تلو الأخرى، بما فيها قرية دابق بما تمثّله من رمزيّة لطالما سعى «داعش» إلى تكريس حضورها في وجدان «مجاهديه»، وبشكل كاريكاتوري جاءت معركة دابق أشبه بنزهة لا تمتّ بصلة إلى «معركة آخر الزمان» الموعودة. ولا تقتصر هزليّة المشهد على ما تقدّم، بل تتعدّاها إلى تفصيل بالغ الأهميّة مفادُه أنّ عدداً من «قيادي داعش» المنسحبين أمام تقدّم «درع الفرات» يقيمون اليوم في كنف «الدرع» وعلى وجه التحديد في مدينة جرابلس (ريف حلب الشمالي) وفقاً لما تؤكّده مصادر عدّة (بعضها «جهادي» وبعضها من السكان) لـ«الأخبار». نجاح أنقرة في الحلول محلّ «داعش» في المناطق التي تحولت «منطقة آمنة» غير معلنة لم يكن المسمار الأول في نعش التنظيم بطبيعة الحال، غير أنّه كان مسماراً شديد الفعاليّة لأنّه جاء في مرحلة مفصليّة. لكن أنقرة التقطت بوضوح أن زمن الصعود قد ولّى، فأجادت استثمار علاقاتها المتشعّبة لتنفيذ دخولٍ آمن إلى مسرح الحدث، وبطريقة تضمن لها تحقيق أهداف عدّة على رأسها تقويض أي فرصة أمام الأكراد لوصل «الأقاليم»، إضافة إلى خلق منطقة تبدو أشبه بمنطقة «انتداب» غير معلن.

على الانسحاب نحو جسر خسارات والأحياء الشرقية للمدينة. ويقول مصدر عسكري، إن «تأخر تنفيذ عمليات باتجاه أحياء المدينة، سببه العمل على إعادة تحصين طريق السخنة، بالإضافة إلى تحصين المواقع في حويجة صكر ذات الطبيعة الجغرافية الصعبة وذلك لوقوعها بين فرعي النهر». وتوقّع المصدر أن «تشهد أحياء المدينة زخماً عسكرياً خلال هذا الأسبوع». وهو أمر أصبح مستعجلاً مع كثافة القذائف التي تطال الأحياء التي يسيطر عليها الجيش، والتي تسببت باستشهاد خمسة عشر مدنياً على مدار اليومين الماضيين.

أما على طريق السخنة – دير الزور، فقد حصن الجيش مواقعه على الطريق من دوار البانوراما، مروراً بالمالحة والشولا وكباجب، وصولاً إلى ما بعد هريبشة بخمسة كيلومترات. ومن طرف السخنة، يتمركز الجيش على بعد 15 كيلومتراً على الطريق شرق البلدة، بينما تتحشّد قواته في داخلها، تمهيداً لشن عمليات عسكرية لاستعادة السيطرة على كامل نقاط الطريق الواصل بين السخنة وهريبشة، وإعادة فتح الطريق نحو دير الزور أمام القوافل التجارية والإنسانية، بعدما حوّلت طريقها مؤقتاً باتجاه طريق أثريا ـ الرصافة. وعلى جبهة حميمة، يواصل الجيش والحلفاء عملياتهم العسكرية، الهادفة إلى الوصول إلى محيط محطة «T2». وتشير المعطيات إلى أن الجيش يسعى إلى توزيع العمل على محورين، الأول باتجاه حقل التيم لتأمين الطريق مع السخنة بشكل كامل، والثاني باتجاه البوكمال للالتقاء مع القوات المتقدّمة من الميادين.

واستطاع الجيش أمس إنهاء العمليات العسكرية في ريف حمص الشرقي (شرق جب الجراح)، واستعادة كامل القرى والمواقع الممتدة على مساحة تصل إلى 1800 كيلومتر مربع من يد «داعش». وينتظر أن ينعكس تفرغ القوات العاملة هناك، كزخم ميداني أوسع على الجبهات القريبة في ريف حمص الشرقي، وعلى طول طريق تدمر ـ دير الزور.

عزل الجيش «داعش» ضمن جيب يمتد قرابة 40 كيلومتراً على سرير الفرات الجنوبي (أرشيف ـ ف ب)

«الجماعة» تستعد لـ«القطاف»

في البدء كان «الإخوان المسلمون». في مطلع عام 2011 اتّخذ التنظيم السوري لـ«الجماعة» قراراً بإنهاء العمل بتعليق النشاط السياسي. في نهاية كانون الثاني 2011 أصدر «إخوان سوريا» بياناً بعنوان «الشام على خطى الحرية»، وكان بمثابة تنفيذ لـ«تهديدات» إعلاميّة على لسان محمد رياض الشقفة قبل شهر قال فيها: «إذا استمر النظام في تجاهله لإرادة الشعب، فسنحرّض الشعب على المطالبة بحقوقه حتى يصل إلى مرحلة العصيان المدني». حين دقّت نواقيس التسلّح من درعا إلى حمص وإدلب، سارعت «الجماعة» إلى دعم تشكيل «الكتائب» و«الألوية» و«السرايا». لم يستسغ المال الخليجي اللعبة وفق تلك القواعد، صعدَ السلفيّون ثم دخلوا مرحلة الانحدار، وما زالت «الجماعة» حاضرة. دخل تنظيم «القاعدة» المشهد السوري وهيمن عليه، ثم ها هو يبحث عن باب خلفي ينسحب عبره، وما زالت «الجماعة» حاضرة. بدّلت «جبهة النصرة» جلدها ومسمَّياتها مرات عدة، قبل أن يتنادى الجميع إلى إعلانها إرهابيّة أيّاً كان الرداء الذي ترتديه، و«الإخوان» يبتسمون. ملأ تنظيم «داعش» الدنيا وشغل الناس، رفرفت راياته السوداء في طول البلاد وعرضها وجرّب بالسوريين كلّ فنون القتل، ثم آذنت «شمس الخلافة» بالغياب، ولم تغب «الجماعة». عندَ كلّ منعطف ومفصل كانت جاهزةً لاستشعار الاتجاهات الجديدة وتوجيه البوصلة، قعقعة السلاح لم تُلهها عن «فنّ الممكن». شُكّلت هيئات وتجمّعات، ثم كان «مجلسٌ وطنيّ» فـ«ائتلاف» و«حكومة مؤقّتة»، ودائماً برضى «الجماعة» وبركاتها. في المال القطري كان لـ«الجماعة» نصيب، حين تحرّكت السعودية متأخرة لم يكن أمامها بُدّ من الدخول عبر البوابة التركية، ونالت «الجماعة» من «الحبّ جانباً». في الجوهر، ما كانَ لأحدٍ في «الخندق المعارض» أن يتخطّى أنقرة، وهذا من حسن حظ «الجماعة». اليوم، تنشغل الرياض والدوحة بـ«أزمتهما» وتصول أنقرة وتجول. تُبرم اتفاقاً هنا، وتفتّش عن صفقة هناك. يحتلّ جيشها مدناً ومناطق بيُسر وتُرفرف أعلامُها فوق مشافٍ ومدارس و«مؤسّسات»، فيما تدرس «أفضل العروض والخيارات» للهيمنة على ما أمكنها من إدلب، و«الجماعة» تتهيّأ لقطف ما «تيسّر».

صهيب...